

تراث كنوز الحكمة



التراث العربي الإسلامي حشد ضخم من مكونات كثيرة تواهمت فتفاعلـت فأنجـبت ثـقـافـة ثـرـة وـحـضـارـة غـرـاءـ. جـملـة موـاـقـفـ جـدـتـ فيـ حـيـاةـ الـعـرـبـ فـتـجـلـتـ رـؤـىـ رـائـعةـ نـقـلـتـ المـجـتمـعـ الـقـدـيمـ نـقـلـةـ نـوـعـيـةـ إـلـىـ عـهـدـ كـرـيـمـ وـضـاءـ لـاـ تـلـدـدـ فـيـهـ وـلـاـ ظـنـونـ. مـنـ الـمـوـاـقـفـ الـتـيـ رـمـقـهاـ أـولـئـكـ الـمـفـكـرـونـ

الـرـوـادـ: 1ـ الرـؤـىـ الـجـديـدةـ فـيـ الـحـيـاةـ. 2ـ الـمـوـحـيـاتـ فـيـ الـآـفـاقـ. 3ـ الـمـشـاهـدـ

الـوـاـضـحـاتـ. 4ـ الـمـوـاـقـفـ الـطـرـيـفـةـ وـمـاـ اـكـتـنـزـتـهـ مـنـ تـجـلـيـاتـ. 5ـ الـإـيقـاعـاتـ الـتـيـ دـلـلـتـ

عـلـيـهـاـ وـأـوـمـأـتـ إـلـيـهـاـ دـلـلـاتـ الـآـيـاتـ. 6ـ الـطـاقـاتـ الـتـيـ فـجـرـتـهـاـ مـشـاهـدـ الـمـعـجزـاتـ. فـلـاـ غـرـابةـ

فـيـ ذـلـكـ وـلـاـ إـسـتـغـرـابـ. إـذـ إـنـ"ـ التـرـاثـ هـذـاـ إـنـمـاـ اـسـتـلـهـمـ مـقـومـاتـهـ مـنـ مـنـجـمـ لاـ يـنـفـدـ وـمـنـ مـنـبعـ لـاـ

يـنـصـبـ أـلـاـ هـوـ الـقـرـآنـ. أـبـدـعـتـ هـذـاـ التـرـاثـ عـقـولـ نـيـرـةـ مـسـتـنـيرـةـ اـسـتـوـفـتـ فـيـ نـسـيجـ اـسـتـعـدـادـاتـهـ

مـوـفـورـ الـفـكـرـ، وـمـوـرـوثـ الـقـيـمـ، وـأـرـتـوـتـ مـنـ مـعـينـ الـأـخـلـاقـ، وـاسـتـكـمـلـتـ رـوحـ التـسـامـحـ، وـتـمـثـلتـ حـقـيقـةـ

الـوـسـطـيـةـ فـيـ الـحـيـاةـ. أـجـلـ، عـقـولـ عـاشـتـ جـمـالـ الصـحـراءـ، وـأـلـفـتـ صـفـاءـ السـمـاءـ، وـتـأـمـلـتـ عـظـمةـ

الـمـلـكـوتـ مـسـتأـنسـةـ بـهـدـيـ آـيـاتـ الـقـرـآنـ الـبـيـنـاتـ. وـكـمـ صـنـعـتـ الصـحـراءـ مـنـ نـوـابـغـ وـأـلـهـمـتـهـمـ

أـسـرـارـهـاـ! وـبـذـلـكـ: (ـفـقـدـ نـبـغـ الـعـلـمـاءـ الـعـرـبـ فـيـ كـلـ فـنـ، وـنـزـلـوـاـ كـلـ مـيـدانـ، وـاقـتـحـمـوـاـ كـلـ مـعـقـلـ،

وـأـحـاطـوـاـ بـجـمـيعـ أـلـوـانـ الـثـقـافـةـ الـتـيـ اـنـبـعـثـتـ فـيـ مـرـاكـزـ مـتـعـدـدـةـ، حـتـىـ لـقـدـ سـبـقـوـاـ الـغـربـ إـلـىـ

الـكـثـيرـ مـنـ النـظـريـاتـ فـيـ الـطـبـيـعـةـ وـالـكـيـمـيـاءـ وـالـرـياـضـةـ وـالـفـلـكـ وـالـطـبـ وـالـتـارـيخـ وـالـاجـتمـاعـ..ـ.

وـأـغـنـوـاـ التـرـاثـ الـعـقـليـ الـإـنـسـانـيـ بـكـثـيرـ مـنـ الـمـعـانـيـ وـالـأـفـكـارـ. وـبـعـدـ أـنـ لـمـ يـكـنـ لـلـعـربـ سـوـىـ

خـطـرـاتـ الـفـكـرـ وـفـلـقـاتـ الـطـبـ عـلـىـ حدـ تـعـبـيرـ الشـهـرـسـتـانـيـ، فـقـدـ غـدـوـاـ فـحـولاـ"ـ فـيـ التـمـحـيمـ

والتحليل والتدقيق، والربط والمقارنة والتسلسل في عرض الآراء والأفكار والمذاهب والفلسفات، ومثلاً يُحتذى في سير الأغوار والغوّص على المعاني؛ لا عفو الخاطر، ولا بالبهية الجامحة والتعسف الشارد، بل بالخطو الوئيد، والنقلة المتأنية المدروسة. وبهذه الصفات العظيمة غدت الأُمّة العربية وريثة الفكر الشرقي واليوناني معاً، والقديمة وحدها على ذخائر الثقافة والفن، والممثلة الوحيدة للحضارة الإنسانية الرفيعة في العصور الوسطى كلها. فعظمت الحركة العلمية والعقلية بين المسلمين، واتسع نطاقها، حتى شملت كل شيء من مظاهر الحياة تقريراً. وبعد أن بلغت هذه الحركة غاية مداها، واستنفت جميع ممكناً تها، وحققت جميع أغراضها في بلاد الإسلام، انتقلت إلى بلد آخر ومناخ آخر، مشحونة برصيد كبير من التجارب والخبرات والأفكار والنظريات، لظهور مرة أخرى وتسانف الحياة من جديد في حركة النهضة العلمية في إيطاليا بعد سقوط القدس القسطنطينية [1]. وما أكثر ما كُتب عن المفكرين والعلماء وال فلاسفة والفقهاء العرب ومقدار ومدى ما كانوا يتمتعون به من أصلحة في الفكر، وأمر بالعدل، وسماحة في الخلق، وإعراض عن الجاهلة والجاهلين. فمن بين دساتيرهم الجديدة التي أخذوا أنفسهم بها، أحكموا سلوكياتهم بمقتضاها، كان دستور التوجيه الإلهي الملزם بالأمر المراد به خير الإنسان في كيفية معيشة أخيه الإنسان: (خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) (الأعراف/ 199). قال رسول الله ﷺ، لما أُنزلت عليه هذه الآية: (ما هذا يا جبريل؟) قال: إنّ الله أمرك أن تعفو عن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك [2]. والإجماع على (العرف) أَنَّه: المعرف، وفيه تدخل جميع الطاعات، وبالإعراض عن الجاهلين، وذلك وإنْ كان أمراً لنبيله (ص)، فإنَّه تأديب لخلقه كافة بضرورة توطين النفس على احتمال المشاق، والصفح، والتسامح. ففي هذه الآية، كما في غيرها كثير، تأديب، وتربيّة، وترويض للنفس البشرية. وقد أخذ بعض الحكماء هذا المعنى فسبكه في بيتهما جناس فقال [3]: خذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِعُرْفٍ كَمَا أَمْرَنَّ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ فِي الْكَلَامِ لِكُلِّ الْأَنَامِ *** فَمُسْتَدْحَسَنُ من ذوي الجاهِلِينَ وقال بعض العلماء: الناس رجال، فرجل محسن فخذ ما عفا لك من إحسانه ولا تكلِّفْه فوق طاقته ولا تحرجه، وإنّما مسيء فمره بالمعروف، فإن تماهى على ضلاله واستعصى عليك واستمر في جهله فاعرض عنه، فلعل ذلك أن يردّ كيده [4]. وقد أُعجب العرب كثيراً بقوله تعالى: (خُذْ الْعَفْوَ...) إلى آخر الآية، لما فيها من بلاغة، ولما فيها من سهولة سبك، وعذوبة لفظ، وسلامة تأليف، مع ما تضمنته من إشارات بعيدة، ورموز لا تتناهى، وأطلقوا على هذا النوع من الأساليب اسم فن يقال له (الانسجام)، وهو أن يكون الكلام متهدّراً كتحدّر الماء المنسجم، حتى يكون للجملة من المنتور وللبيت من المنظوم وقع في النفوس، وتأثير في القلوب، ما ليس لغيره [5]. ومن النماذج الشعرية لهذا الفن التي خلت من

البديع، إِلَّا أَنْ يَأْتِي مِنْ السُّهُولَةِ، مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ، كَقُولِ بَعْضِهِمْ، وَيُنْسَبُ إِلَى دِيكِ الْجَنِّ^٦
الشاعر الحمصي[6]: يَا بَدِيعَ الدَّلَلِ وَالغَنَاجِ *** لَكَ سُلْطَانٌ عَلَى الْمُهَاجِ إِنْ بَيْتًا
أَنْتَ سَاكِنُهُ *** غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَى السُّرُجِ وَجْهُكَ الْمَأْمُونُ حُجَّتُنَا *** يَوْمَ تَأْتِي
النَّاسُ بِالْحَجَّ وَلَبَهَاءِ الدِّينِ زَهِيرٌ[7] قَوْلُهُ: لَحَاطُكَ أَمْضَى مِنَ الْمَرْهُفِ *** وَرِيقُكَ أَشَهِي
مِنَ الْقَرْقَافِ وَمِنْ سِيفِ لَحَاظِكَ لَا أَتَقِي *** وَمِنْ خَمْرِ رِيقِكَ لَا أَكْتَفِي أُقَاسِي الْمَنْوَنِ لَنِيلِ
الْمَنْيِ *** وَيَا لَيْتَ هَذَا بِهَذَا يَفِي زَهَارِكَ وَرَدُّ خَدِّي يَكَ لَكَنْهُ *** بِغَيْرِ النَّوَاطِرِ لَمْ
يُقْطِفْ وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّهُ مَضْعُوفٌ *** وَمَا عَلِمُوا أَنَّهُ مُضْعَفٌ فِي وَمَمَا يَتَمَثَّلُونَ بِهِ شَعْرًا يَسْتَحِقُ
أَنْ يَغْنِي بِهِ قَوْلُ صَفِيِ الدِّينِ الْحَلَّيِ[8]، وَقَدْ بَلَغَ فِيهِ غَايَةُ الْإِنْسَجَامِ: قَالَتْ: كَحْلَتِ الْجَفُونَ
بِالْوَسْنِ *** قَلَتْ: ارْتَقَابَا لَطِيفَكَ الْحَسَنِ. قَالَتْ: تَسْلَمَتْ بَعْدَ فَرَقْتَنَا *** قَلَتْ: عَنْ
مَسْكَنِي وَعَنْ سَكَنِي قَالَتْ: تَشَاغَلْتُ عَنْ مَحْبَّتِنَا *** قَلَتْ: بِفَرْطِ الْبَكَاءِ وَالْحَزَنِ. قَالَتْ:
تَخَلَّيْتَ، قَلَتْ: عَنْ جَلَادِي *** قَالَتْ: تَغَيَّبَتْ، قَلَتْ: فِي بَدَنِي قَالَتْ: أَذْعَتَ
الْأَسْرَارَ، قَلَتْ لَهَا: *** صَيْرَ سِرِّي هُوَكَ الْعَلَنِ. قَالَتْ: فَمَاذَا تَرَوْمُ؟ قَلَتْ لَهَا:
*** سَاعَةِ سَعْدِ بِالْوَصَالِ تُسْعَفُنِي قَالَتْ: وَعِينُ الرَّقِيبِ تَرْقُبُنَا *** قَلَتْ:
فَإِنَّهُ لِلْعَيْنِ لَمْ أَبْنَ اِنْحَلَّتْنِي بِالْبَعَادِ عَنْكِ فَلَوْ *** تَرَصَّدَتْنِي الْعُيُونُ لَمْ
تَرَنِي وَلَقَدْ يَحْسَنُ خَتَامُ هَذِهِ الْمُخْتَارَةِ بِالْحَكَايَةِ الْأَتِيَّةِ: قِيلَ: إِنْ بَعْضُ الْأَدْبَارِ اجْتَازَ بِدَارِ
الشَّرِيفِ الرَّضِيِّ، وَقَدْ أَخْتَى عَلَيْهَا الزَّمَانُ، وَأَذْهَبَ بِهِجَتْهَا، وَأَخْلَقَ دِيَاجَتْهَا، وَبَقَا يَا رَسُومَهَا
تَشَهِّدُ لَهَا بِالنِّصَارَةِ. فَوَقَفَ عَلَيْهَا مُتَعْجِبًا مِنْ طَرُوفِ الزَّمَانِ، وَتَمَثَّلَ بِهِذِهِ الْأَبْيَاتِ: وَلَقَدْ وَقَفَ
عَلَى رَبْوَعِهِمُ *** وَطَلُولُهَا بِيَدِ الْبَلَى نَهْبُ فَبَكَيْتُ حَتَّى ضَجَّ منْ لَغْبِ *** نَصْوِي
وَعَجَّ بَعْذَلِي الرَّكْبُ وَتَلَافَّتَ عَيْنِي فَمَذْ خَفَيَتَ *** عَنِّي الطَّلُولُ تَلَافَّتَ
الْقَلْبُ فَمَرَّ شَخْصٌ فَقَالَ لَهُ: أَتَعْرِفُ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ - لَمَنْ؟ فَقَالَ: لَا، قَالَ: وَإِنَّهَا لِصَاحِبِ هَذِهِ
الْدَارِ، فَتَعْجَبَا مِنْ غَرِيبِ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ - لَمَنْ؟ ذَكَرَ[9]. إِنْ مَا سَلَفَ ذَكْرُهُ، وَغَيْرُهُ
كَثِيرٌ لَمْ نَذْكُرْهُ، إِنَّمَا هُوَ اسْتِلْهَامٌ مِنَ الْإِبْدَاعِ الْقُرْآنِيِّ وَمَا انْطَوَى عَلَيْهِ مِنْ بَدَائِعِ الْمُحْسَنَاتِ
الْبَدِيعِيَّةِ، وَاسْتِيَفاءِ دَقَائِقِ الْمَعَانِي الْبَيَانِيَّةِ، وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ فَضْلِ الْقُرْآنِ عَلَى حَسْنِ التَّعْبِيرِ
فِي اسْتِجَلاءِ الْبَيَانِ، وَتَقْوِيمِ الْقَلْمَ وَفَصَاحَةِ الْلِّسَانِ. فَهَذِهِ التَّفَاسِيرُ الضَّخْمَةُ، وَهَذِهِ الْآلَافُ مِنْ
الْأَسْفَارِ التَّرَاثِيَّةِ الْفَخْمَةِ، إِنَّمَا تَمْخَضَتْ عَنْهَا عَقُولُ كَانَتْ دُونَ شَكٍّ مَهْيَأَةً لِلنَّهْضَةِ تَشْرِيعِيَّةً،
وَأَدَبِيَّةً، وَعِلْمِيَّةً، تَبَهِرُ النُّفُوسَ الْدَّهْشَةَ بِسَيْلِ الْقَرَائِبِ الْمُوَارِةِ الَّتِي انْطَلَقَتْ تَسْتَنبِطُ،
وَتَسْتَقِرُّ، وَتَفْسِرُ: عَمَلاً وَتَجْرِيداً. عَمَلِيَاً إِذْ ضَرَبَ إِنْ تَعَالَى لِلْعَرْبِ فِي الْقُرْآنِ أَمْثَلَةَ حَسِيَّةَ،
لَأَنَّهَا أَقْطَعَ لَعْدَرَهُمْ، وَأَطَهَرَ فِي الْحَجَّ عَلَيْهِمْ[10]. إِذْ إِنْ فِي الإِدْرَاكِ الْحَسِيِّ وَالْعَقْلِيِّ لِلْإِنْسَانِ
مَعْرِفَةَ وَغَايَةَ، وَفِي الإِدْرَاكِ بِنَوْعِيهِ يَكُونُ الْمَعْنَى قَدْ اسْتَوْفَى تَمَامَهُ. نَفْسُ الْإِنْسَانِ تَوَّاْقَةً أَبْدَاهُ
إِلَى مَزْجِ رَغَائِبِهَا بِالْمَعْنَوَيَاتِ الرَّفِيعَةِ. فَالْإِنْسَانُ بِتَكْوِينِهِ الْفَطَرِيِّ مَجْبُولٌ عَلَى أَنْ لَا (أَلَا)

تستيقن نفسه، ولا تهدأ نوازعه إِلَّا إذا أدركت حواسه ما حولها وبه ارتطمت. فذلك في نفسه أوقع ولعقله أقنع، الها مُش:

[1]- د. محمد عبد الرحمن مرحبا، *أصولة الفكر العربي*، ص274. [2]- ابن كثير، *تفسير القرآن العظيم*، المجلد الثاني، دار الفكر، بيروت (1420هـ - 2000م)، ص785. [3]- ابن كثير، *تفسير القرآن العظيم*، المجلد الثاني، ص785-786. [4]- نفسه، ص785-786. [5]- محي الدين الدرويش، *إعراب القرآن الكريم وبيانه*، المجلد الثالث، ص93. [6]- عبد السلام ديك الجن الدين زهير (777-849)، عُرف بهذا اللقب، شاعر سوري من الشعراء المجيدين، عُرف بمجنونه. [7]- بهاء الدين زهير (1185-1258) شاعر مكي، قرّبه الصالح الأيوبي في مصر. امتاز شعره بالرقه والظرف والسهولة، له ديوان شعر. [8]- هو صفوي الدين الحلّي (1277-1349) شاعر عراقي. أغرم بالبديع، وكان أول من نظم البدعيات، له ديوان (درر النحور) وفيه (29) قصيدة كل منها بـ(29) بيتاً، تبدأ أبيات كل قصيدة وتنتهي بحرف من الحروف الهجائية المسلسلة، في هذا الديوان يمدح الملك منصور الأرتقي التركماني. حكم الأرتقيون في ديار بكر. [9]- نفسه، ص94-93.

[10]- ينظر للمؤلف: *القرآن وعلوم الإنسان - مناهج وآفاق - الجزء الثاني، الأمثلة الحسية في القرآن*: تنوير وبيان، منشورات عبادي، صنعاء (1426هـ - 2005م).

المصدر: كتاب القرآن وعلوم الإنسان (مناهج وآفاق)